وهكذا لا يقتصر الأمر على عدم معرفة السامع الأفكار التي تمثل كلمات المتكلّم بل لا يمكن أن يتأكد السامع بأن أفكار المتكلّم ذات الأنماط المختلطة هي نفسها موجودة لديه. ولا يختص الأمر بالعلاقة بين الكلمة والفكرة وأن هذه العلاقة غامضة وحسب ولكن الأمر يتعلّق كذلك ببنية الأفكار نفسها. كيف يمكن لشخص ما أن يوصل أفكاره إلى الآخرين بوساطة اللغة؟ (إذا أخذنا بنظر الاعتبار ما نسمّيه بالنقص المضاعف في الكلمات والأفكار). كيف يمكن للمتحدثين تجنّب الحالة التي تكون فيها عباراتهم مجرد «ملء رأس الآخرين بالضجيج والأصوات ولذلك لا تنقل أفكارهم»؟

من المفيد أن لوك لا يناقش إطلاقاً مسألة الاستخدام الاعتيادي للغة. وهو يعترف أنه برغم النواقص في الاستخدام العام فهو «ينظّم معنى الكلمات بشكل أفضل لاستخدامها في المحادثات العامة» وبرغم أن ذلك غير كاف للخطاب العلمي والفلسفي

(الكتاب الثالث، الفصل التاسع، الجزء الثامن)

مع أننا في حديثنا اليوم نبدو ـ كما يعتقد لوك ـ كأننا لا نفعل أكثر من ملء رأس الآخرين بالضوضاء والضجيج، فهو لم يفسّر كيف أن اللغة مع ذلك تنجح في تحقيق أغراضها من الخطاب العادي. وكيف أن اللغة رغم نواقصها تجعل الأحداث التواصلية ممكنة؟ وكيف تأتي معاني المفردات منتظمة بشكل جيد (وكاف) لتمشية الأمور اليومية؟.

وهذه الأسئلة ليست من النوع الذي يثير اهتمام لوك رغم أنها ـ كما سنرى في الفصول اللاحقة ـ جزء من اللغز الذي حيّر أولئك الذين تأثروا بوجهة نظر لوك عن اللغة. وبدلاً من ذلك، بعد أن بيّن لوك ما يراه من نواقص في اللغة وكذلك التهديد الذي تمثّله ضد تحصيل المعرفة ونشرها، لكي تُستخدم اللغة بشكل

للتناقل رغم أن هذا التهديد لا يُصنّف بدقّة ضمن نواقص اللغة. فليست العلاقة بين الأفكار والمفردات اعتباطية وإرادية وفردية وخاصة وحسب بل نجد أن الكثير من الأفكار ذاتها تُصاغ نتيجةً لعمليات ذهنية اعتباطية وإرادية وفردية وخاصة. وهنا يصبح نوع الفكرة التي يسمّيها لوك «الأنماط المختلطة» عرضة للاختلاف. فالأفكار البسيطة تُستمدّ مباشرة من تجربتنا ضمن الحقيقة الموضوعية ومن خبرتنا في العمليات الذهنية الموجودة لدينا بالفطرة. فهي لذلك ـ كما يرى لوك ـ متشابهة لدى جميع الناس. والأفكار البسيطة تُستمدّ تماماً من وجود الأشياء وهي ليست اعتباطية على الإطلاق .

(الكتاب الثالث، الفصل الرابع، الجزء السابع عشر)

وفي هذا السياق لا تمثّل خصوصيتها مشكلة لأنها ستكون هي ذاتها لدى جميع الأشخاص. أما الأفكار المعقّدة فهي تُصاغ بالفعل الإرادي وفي بعض الأحيان بالفعل الاعتباطي الذي يؤدّيه ذهن المرء. وتمثّل الأفكار المادية مشكلة أقل من تلك التي تُصنّف ضمن الأنماط المختلطة. لأن كل فكرة مادية تشير إلى شيء موجود فعلاً في الطبيعة ويفترض لوك أن الأشخاص يحاولون التوفيق بين أفكارهم المادية ونمط الشيء الحقيقي الذي تشير إليه تلك الأفكار. ولكن لا توجد أشياء حقيقية يمكن ربطها مع الأنماط المختلطة. إن الفكرة ذات النمط المختلط عن «الحقيقة» لديّ لا تشير ولذلك لا تتوافق مع أي شيء موجود ومتوفّر بشكل موضوعي في الطبيعة. وليس هناك نمط يمكننا جميعاً أن نقلّده في صياغة فكرتنا عن «الحقيقة». وبدلاً من ذلك، تُصاغ الأفكار المعقّدة اعتباطا بالفكر الخاص الصادر عن إرادة الفرد. لذلك «فإن الفكرة المعقّدة لدى شخص نادراً ما تتّفق مع الفكرة المعقّدة لدى الآخر وغالباً